عسير

يطلق «عسير» على الجهة الغربية من بلاد العرب الواقعة إلى جنوب الحجاز وشمال اليمن. وقد كان هذا القسم أيام حكومة الأتراك غير محدود تحديداً واضحاً، فمع أن الأتراك قد كوَّنُوا متصرفية[1] عسير وجعلوها تابعة لولاية اليمن فقد كان أشراف الحجاز يدَّعون تبعية بعض المناطق المجاورة للحجاز، كما كان أمراء نجد أيضاً يدَّعون ملكية بعض المناطق من الجهة الشرقية. أما اليوم فإن عسيراً أصبحت من المملكة العربي السعودية، حسب معاهدة الطائف الأخيرة.

ومنطقة الحجاز الرملية الموازية للشاطئ تمتد إلى بلاد عسير بعرض يختلف من ٢٥-٣٠ميلا، ثم تتصل بتهامة اليمن. أما المنطقة الثانية والثالثة والرابعة في الحجاز[1] فإنها لاتظهر بجلاء في بلاد عسير، ويكاد لا يكون هناك تمييز بين هذه المناطق الثلاث.

وعلى بعد نحو ثمانين ميلا من الشاطئ توجد سلسلة مرتفعات عالية، يبلغ ارتفاعها نحو ٦,٠٠٠ إلى ٧,٠٠٠ قدم، ومن هنالك تأخذ الأرض من جانبها الشرقي في الانحدار شيئاً فشيئاً ، حتى تتصل بحاري نجد.

ونظراً لما يصيب بلاد اليمن من المطر الموطمي في الخريف، ونظراً لقرب عسير منها، فإنه يصيبها من هذا المطر غير قليل. ولذا فإن وديانها الكثيرة الشاسعة تعتبر من الدرجة الأولى في الخصوبة. وأهم هذه الوديان هو[2]:

وادي رانِيَة - وادي بِيشة- وادي شَهْران - وادي عقيق.

وأغلب الوديان الكبيرة تجرى فيها المياه، إما فوق سطحها أو قريباً منه. وحالة

(١) متصرفية : مديرية في عرف مصر أو محافظة في النظام الحالي.
(٢) راجع التقسيم الطبيعي لولاية الحجاز.

الوديان تختلف عنها في الحجاز، لأن البلاد خالية من النّفُود[1].

وتجري الوديان الرئيسية في اتجاه وادي الدَّوَاسِر الواقع في جنوبي نجد، والبلاد الداخلية في غاية الخصوبة، وخصوصاً من تَنُومَة إلى تَمَنِيّة. وهي تضارع أحسن وأخصب البلاد العالية في اليمن. والمزروعات على اختلاف أنواعها من حبوب وبقول وفاكهة تجود في الوديان.

والجزء المجار لشاطئ البحر وإن كان رمليًا، فإنه أحسن بكثير من نظيره في الحجاز ففي أجزاء كثيرة منه تنبت المزروعات، ويعيش كثير من السكان عليها.

وينزل مطر غير غزير في جنوبي تهامة وتهامة الوسطى في شهري فبراير ومارس. وفي شهر يونيو تنزل أمطار غزيرة. أما في الشمال سواد في الداخل أو في البلاد الساحلية، فإن المطر ليس دوريا جليل الفائدة.

السكان

يبلغ عدد السكان تقريباً حوالي مليون ونصف. والأهالي كلهم شافعيُّو المذهب؛ إلا النادر القليل جداً في الشمال الشرقي؛ فإنه حنابلة سلفيون.

ويشتغل غالب الأهالي بالزراعة والبدو الرحل قليلون جداً في عسير. والاختلاط في الأنساب قليل فيها، إلا ما كان منه في المدن الكبيرة، وحدود القبائل بعضها من بعض معينة تعييناً دقيقاً ليس له نظير في غير عسير. وأقوى القبائل وأكثرها عدداً يحتل صلب البلاد، ورءوس الوديان الداخلية، والجزء الأعلى من العقبات.

(١) النفود جبال رملية .

الزراعة

تتوقف الزراعة في تهامة على أمرين: الأول نزول الأمطار المحلية، والثاني سيول المياه من الوديان المنحدرة إلى البحر. وفي مجرى أغلب الوديان الكبيرة تقام السدود لحجز المياه، وتوجيهها في اتجاه الأراضي المراد زراعتها. وتحصد الأرض مرتين. في الربيع وفي الصيف. وثلاث مرات في بعض الأحيان.

والمزروعات هي الدخن والأذرة والسمسم والقطن وكل أنواع الخضرة المحلية. وأخصب الأجزاء في تهامة هو الجزء الواقع بي حِلِيّ والبِرْك. وفي الداخل يزرع القمح والشعير والأذرة والفواكه؛ وشجر البن، ولكن بكمية قليلة لاتفي بالقدر الذي يستهلك في داخل البلاد .

والماشية والغنم والماعز والجمال تربى بكثرة في عسير، سواء في تهامة أو في الداخل.

التجارة

وموانئ الواردات إلى عسير هي : القنْفُدة، والبِرْك، والشَّقيق، وجِيزَان الجَعَافِرة، والمَضَايَا، وتَعْشَر، والمُوَسَّم، والقُرَنيّة.

وواردات عسير قليلة، وأهمها البضائع القطنية، والسكر، والبترول، والأرز وأدوات الطبخ، والأسلحة والذخائر.

أما الصادرات فإنها قل وهي : القمح والدخن، والأذرة، والسمسم، والمسك المقدد، ويصدر إلى جدة أثناء موسم الحج. كما يصدر إلى مصوع وعدن السمن والجلود والسمسم والصوف والتمر والصمغ وبعض الدواب. وقد اهتم الملك سعود بالأحوال الزراعية والتجارية فأنشأ وزارتين للتجارة والزراعة لتطوير

البلاد زراعياً وتجارياً وقد قامت هاتان الوزارتان بنشاط ملوظ حسب إمكانياتهما وحسب الظروف والاتجاهات المختلفة التي تحيط بهما.

البلاد

بلاد عسير المشهورة هي ما يلي :-

١- بيشة :

بلدة زراعية مكونة من جملة قرى، واقعة في الوادي المسمى باسمها، وهي على بعد ٢٤٠ميلا من شرق الجنوب الشرقي لمكة، وهي نقطة هامة على الطريق من وادي الدَّواسر إلى الحرمين، وأهم مكان بين الطائف وصنعاء ، ويعتبرها العرب مفتاح اليمن. وتروى الواحة بوساطة نهير صغير يسير متجهاً نحو الشمال الشرقي حيث ينحدر إلى وادي الدواسر مع سواه من النهيرات الأخرى الصغيرة، وقد جكم الأشراف قديماً هذه المنطقة؛ قبل الحركة الإصلاحية، في نجد. ففي تاريخ العصامى، كثير من أخبار الأشراف في بيشة، وللاتصال الشديد بين بيشة ووادي الدوايرٍ كانت هذه المنطقة موضع نزاع بين الأشراف ونجد.

٢- تُرْبَة :

تقع على بعد تسعين ميلاً من جنوب شرقي الطائف، وهي على الطريق العام من نجد إلى اليمن، وهي مدينة مسورة، وتقع في حجم الطائف، وتحيط بها الأراضي الزراعية، ومزارع النخيل، وتروى بمياه غزيرة، وبجوارها عدة تلال؛ يزرع على سفوحها الشعير والأذرة؛ وقد اشتهرت تُرْبَة بمقاومتها العنيفة لقوات محمد علي سنة ١٨١٥م، كما اشتهرت بمعركتها الشهيرة بين جنود نجد والملك

حسين تحت قيادة الأميّر عبد ا (الملك عبدا) في ٢٤ مايو ١٩١٩م، والتي كان فيها القضاء على جيش الملك حسين.

٣- أبْهَا :

مدينة بيوتها مبنية من الحجـر، على تل في وسط عسير، وهي على بعد نحو ١٣٩ ميلا من قلعة بيشة، وكانت مركزاً للمتصرِّف[١] زمن حكم الأتراك، وهي مركز هام للمواصلات وطرق القوافل في عسير.

٤- مَحايِل :

بلدة في داخليـة عسيـر تبعد عن القُـنْفُدة بنحو ٧٢ مـيلا، وهي ملتـقى عدة طرق: من أبْهَا، ومن القنفدة، ومن حَلِي، ومن البَرْك .

٥- خَمِيس مُشَيط :

هي أكبر مدينة في أخصب جزء من جنوبي عسير، وهي واقعة بين التلول إلى جنوب وادي بيشة، وهي على بعد ١٢٥ ميـلا من شرق الجنوب الشرقي للقنفدة التي تتصل بها بوساطة درب للقوافل، مياهها وفيرة، وهي مركز لتصريف تجارة التمر.

٦- أبو عَرِيش :

أشهر بلدة في تهـامة ، ولها تاريخ هام في القرن التـاسع عشر عصـر النهضة الدينية الأولى، وكانت عـاصمة للشريف حُمُـود الذي لعب دوراً هاماً في ذلك العصر، وهي على بعد ٧٠ ميلا شمال اللِّحَيَّة، وهي مقر المركز المسمى باسمها، وأكثر بيوتها مبني بالحجر، مياهها غزيرة وزراعتها واسعة.

٧- صَبْيا:

على بعد عشرين ميلا في الداخل، وهي الجنوب الشرقي من جِيزَان، وكانت عاصمة الأدارسة، وبها قلعة قديمة بنيت أيام الحكومة الأولى وقد أصلحتها الحكومة الحالية بعد القضاء على ثورة الأدارسة الأخيرة (سنة ١٣٥١هـ ١٩٣٢م) وسكانها نحو خمسة عشر ألف نسمة، مياهها غزيرة ومزروعتها واسعة.

٨- القنفدة:

بلدة صغيرة مسورة ومكونة من جملة بيوت وأكواخ على شاطئ البحر الأحمر، وهي على بعد ٢٠٠ ميل إلى جنوب جدة، وسكانها زهاء أربعة آلاف، وتجلب المياه من حَفَائر على بعد ميلين ونصف في الداخل، وهي ميناء أبْها، وتقع على بعد ٧٢ ميلا من مَحَابل.

٩- حِلِيّ:

هي الرأس الغربي لخلية مَحْمِيّ من رياح الشمال والشرق، وتقع على بعد أربعين ميلا من جنوب الجنوب الشرقي للقنفدة، وهي قرية صغيرة قرب الشاطئ وبقربها توجد قمة حِلِيّ المشهورة وهي على شكل مخروطي.

١٠- جِيزَان:

ميناء صغيرة على بعد ٢٠٠ ميل من جنوب الجنوب الشرقي للقنفدة وهي واقعة أمام مجموعة جزائر فِوْسان، ويحيط بها من جهة الداخل جبل جيزان، وبالبلد بعض مبان بالحجر، ولكن الجزء الأكبر من بيوتها مبني باللبن، والمياه في البلدة قليلة جداً، ولكن بعد ثلاثة أميال ونصف من شمال شرقي البلدة توجد

آبار وحفائر تجتمع فيها مياه الأمطار، وسكانها يبلغون ألفى نفس، وهم يشتغلون باستخراج الؤلؤ، وبقرب جيزان جبل ملح حَجَري.

مِيدِى :

قرية مكونة من بيوت قـليلة وأكواخ، ومنها تذهب القوافل شرقـاً إلى صعْدة وصنعاء، وهي الآن من حدود اليمن، ويتبع منطقة عسير جزائر فِرسان.

خلاصة تاريخية عن حكومة عسير

كانت مقاطعة عسير متصرفيه، تابعة لولاية اليمن أثناء الحكم التركي، ولكن الحقيقـة أن هذه المقاطعة كان يتنازعها نفوذ شـريف مكة وإمام اليمن والإدريسي وبعض الأمراء المحليـين، الدذين كان يتمـتع بعضهم بـشبه اسـتقلال، غـير أن الجميع كانوا يعترفون بسلطة الحكومة التركية.

فأمير مكة كان نفوذه يمتد إلى قبـلائل غامد، وبنى شهرْ وشِهْران. وكان على أتم صلة بمشايخ هذه القبائل غير أن هذه النفـوذ لم يعْدُ التأثير المعنوي. أما طريقة الإدارة والحكم ، فلم يعرف أنه لأمـير مكة أي أثر في ذلك. وفي سنة ١٣٢٩هـ ١٩١٠م اتصل بالقـبـائل الضـاربة بين الـلّيث وأَبْهـا أثناء الحـملة التـركي ضـد الإدريسي،تلك الحملة التي كان للشريف يد ظاهرة فيها، وعلى كل فإن الأتراك أنفسـهم لم يكن لهم نفوذ غلى غـير القنفدة على الـساحل، ومحـايل وأبْها في الداخل، وبعض البلدان الصغيرة القريبة منهما ، والطرق الموصلة بينها.

أما المنطقة التي كان يمتد نفوذ الإدريسي عليها فتشمل قبائل قحطان في القسم الجنوبي من عسيـر، والقسم الأكبر من تهامة، من البَـرْك إلى الحُديِّدَة حيث يبلغ طول المنطقة من الشمال إلى الجنوب نحو ٣٥٠ ميلا وعرضها نحو ٧٠ ميلا.

واتخذ الإدريسي مقاطعة صَبْيَا كعاصمة، ومِيدِي وجِيزان ميناءين . وقبل أن يقوم محمد علي الإدريسي بحركة تأسيس حكومته في عسير كان القسم الأعظم من المنطقة الممتدة من ظهران إلى الطائف خاضعاً لنفوذ عائلة بنى مُغيط (Mugheid) وعاصمتهم مُنَاظِر، أوْ أبْها كما تسمى اليوم. واشتهر من بني مُغِيط في القرن الماضي عايِض بن مَرْعِى الذي كانت له مواقف مشهورة في الحملة المصرية في عسير سنة ١٨٣٤م، وبقيت البلاد حرة من هذه السنة حتى سنة ١٨٦٩م حيث رجع إليها النفوذ التركي، فتقلص نفوذ آل عايِض وأصبح سلطانهم لا يكاد يعدو منطقة أبْها.

أما ما يطلق عليه المخلاف السليماني، فكان مستقلا مدة طويلة، وبقى محافظاً على هذا الاستقلال ضد الحكومة التركية، والقبائل اليمنية من جهة، وضد القبائل الضاربة في الجبال الداخلية من جهة أخرى .

وبيني سنتي ١٨٣٠و ١٨٤٠م خضعت أبُو عَرِيش للشريف علي، الذي اتفق مع المصريين من التخلص من نفوذ عايض بن مرعى؛ وفي أثناء حكمه وصل السيد أحمد الإدريسي المغربي - أحد رؤساء الطرق- إلى صَبْيَا (وكان قبل ذلك مقيما بمكة منذ سنة ١٧٩٩م واعظاً ومرشداً إلى طريقته) وأقام بها إلى أن توفى سنة ١٨٣٧م. وفي أثناء إقامته في صَبْيَا نشر فيها وفي عسير الطريقة تلك التي تلقَّنها في مكة سنة ١٨٢٣. وقد ترك السيد أحمد لأولاده من بعده ثروة مادية ومعنوية لا يستهان بها، ظهر أثرها في أيام ولد السيد أحمد وحفيده، بعد انهزام الشريف حسين ، حاكم أبوعريش، وقد تصاهر الإدريسي مع العائلة السنوسية المنتشرة في السودان ومصر قرب الأقصر. والحقيقة أن نفوذ الإدريسي لم يقتصر فقط على المخلاف السليماني، بل امتد شمالاً وجنوباً حتى إن بعض القبائل الضاربة حول صَعْدة انتشرت بينها تعاليم الإدريسي. هذا ما تركه السيد أحمد

الإدريسي الكبير مـن الأثر في عسير والذي استـغله من بعده السيد مـحمد علي الإدريسي حفيده.

ولد السيد محمد علي الإدريسي في صبـيا سنة ١٨٧٦م وتلقى تعاليمه مابين الأزهر والكُرة مقر السنوسي ، ثم رجع إلى صبيا واضعاً نصب عينيه انتزاع عسير من يد الأتراك، والاسـتقـلال بها. وفي سـنة ١٩١٠م طرد الترك من كـثيـر من البلاد، غيـر أنه لم يوفق في الاستيلاء على أبْها، حـيث لم يقو على الوقوف في وجه الحملة التي سـيرها الأتراك بقيادة أميـر مكة الشريف حسين بن علي. على أن ذلك لم يفل من عزمه، فإنه انتهز فرصة اشتغال الأتراك بمحاربة الإيطاليين في طرابلس، فقام محـاولاً الوصول إلى غرضه الذي وضعه نصب عينيه، مـستعيناً بالإيطاليين. إلا أن هذه المحاولة لم تثمر الثمرة المطلوبة، فإن أمير مكة الذي كان له بالمرصـاد، كان أكـبر عـقبـة في سبـيل الوصـول إلى مايريد؛ ومع ذلك فـإن الإدريسي قد استطاع أن يبسط نفـوذه الأدبي وبعض نفوذه المادي في أثناء الحرب البلقانية، وقد حاول أن ينال من الأتراك اعترافاً بحكومته ففشل، ولم يعترفوا به إلا كقائمقام[١] على صبيا، وأبي عريش، فاكتفى بذلك متحيِّناً الفرص الملائمة؛ وفي أثناء الحرب العالمية الأولى انضم إلى الحُلفاء ضد الأتراك، وعقد معاهدة مع المقيم في عـدن شهـر مايو سنة ١٩١٥[٢] ، وأخذ يغِـير على الأتراك في المناطق الجنوبية حـتى وصل إلى اللَّحَيَّة؛ وبعـد إمضاء الهدنة ترك له الإنجليـز الحُدَيِّدَة ؛ التي احتلوها أثناء الحرب اعترافاً بخدماته التي قام بها أثناء النضال العالمي. وقد اسـتطاع السيـد محـمـد علي الإدريسي أن يقف في وجـه الشريف حـسين من الشمـال، والإمام يحيى في الجنوب، مدة حـياته بالتحـالف مع سلطان نجد سنة ١٣٣٩هـ (١٩٢٠م).

(١) نظير مأمور في عرف مصر.
(٢) تجد نص هذه المعاهدة في ذيل الكتاب.

توفى محمد علي الإدريسي في شعبان سنة ١٣٤١هـ، وولى الأمر بعده ولده السيد علي الإدريسي، فـوقعت البلاد في فوضى، وحـاول الملك حسين والإمام يحيى أن يوسع كل منهما منطقته على حساب الإدريسي فلم ينجح الملك حسين، لأن الفرصة لم تساعده كما ساعدت الإمام يحيى.

وفي ربيع الأول من سنة ١٣٤٣هـ (١٩٢٤م) دخلت جيوش الملك عبد العزيز مكة ظافرة؛ وظلت الجيـوش سنة وبضعة أشهر تتعـقب الأشراف لإجلائهم عن الحجاز، فانتهـز الإمام يحيى هذه الفرصة السانحة فاحـتل الحُدَيدة، وتابع زحفه شمـالاً حتى وصل مَـيدِى؛ فلما وجـد الأدارسة مـا حل بهم عزلوا السـيد علي الإدريسي، وولوا مكانه عمه السيد الحسن الإدريسي أخَا السيد محمد علي.

لم يجد السيد الحسن نفسه قـادراً على الوقوف في وجه الإمام يحيى، فأرسل من قِبَله السـيد مَـوْغنى الإدريسي مندوباً إلى مكة للاستنجـاد بالملك عبـد العزيز وأعلن الملك عبدالعزيز حمايتـه وعقدت معاهدة تنظم الإدارة في تلك المنطقة في سنة ١٣٤٥هـ (١٩٢٦م) لإنقـاذ مـابقى مـن ملك الأدارسـة. وفي سنة ١٣٤٩هـ (١٩٣٠م) طلب السيد الحسن أن تضم البلاد إلى مـملكة جلالة الملك عبد العزيز، وأن يكون حكمه فـيها مباشـراً. ومن ذلك التاريخ أصبح ذلك القسم من عـسير ملحقـاً بمملكة نجد والحـجاز، التي يطلق عـيها الآن المملكة العـربية السـعودية، وطويت صحيفة الأدارسة كما طويت صحيفة آل عايض من قبلهم.